على هامش محاضرة :

الشر فى طبيعة المستعمر

للأستاذ حبيب الزحلاوى

يحار المرء فى تفسير ظاهرة الشر الواضحة فى الشعوب الغربية المستعمرة ، أهى طبيعة أصيلة فيهم أم هى نتيجة مباشرة لعوامل الاعتداد بالقوة وحياة الترف ولوازم المدنية ؟

لا شك فى أن الشعوب الغربية المستعمرة بلغت من الرقى الاجتماعى ومن الآداب والعلوم والثقافة العامة والتسامى فى التهذيب أو كادت تبلغ أوج التعاليم الانسانية ، فما السر فى أنها تقتتل فى الحروب قتال الإبادة والفناء والتدمير والتخريب ، ويعمل الظافر فيها على سحق أخيه المغلوب ؟

ثم ما بال هذه الشعوب الغربية كالجزّار تعمل مداها فى تلك الأغنام التى تدر الثروة عليها كلما أحست بحركة تدب فى هذه القطعان ؟ وما هى إلا الشعوب الشرقية الواقعة تحت سلطانها ودائرة نفوذها ؟

أفهم أن يستمسك الوارث بما ورثه عن الآباء والأجداد ، كما أفهم أن فى طبيعة الغنى القوى جشعاً يدفعه إلى تنمية ثروته وتوسيع جاهه ومد سلطانه كالشعب الانجليزى المستعمر ، أما الذى لا أفهمه ولا أجد سبيلا إلى إدراكه فهو كيف يجوز لبذر متلاف كالشعب الفرنسى الذى أضاع ما ورثه عن آبائه وأجداده وفقد بسفهه الأخلاق والاجتماعى ، كيف يسوغ له وهو القاصر المريض أن يزود بأسلحة الشر يعملها فى رقاب من أرادوا الخلاص منه والانعتاق من رزاياه من سكان شمالى أفريقيا ، خصوصاً وأن الفرنسى كالانجليزى يستويان فى ادعاء تهذيب الشعوب وتدريبها على الحكم الذاتى .

أفهم أن نهم الاستعمار يسيل لعاب الانجليزى ويدفع يده إلى امتلاك كل بقعة من الأرض مجاورة لما اغتصبته يده من قبل ، ولكل قطر سهلا كان أو جبلا ، نهراً أو قناة ، يقع فى طريق امبراطوريته الترامية الأطراف .

أفهم ذلك والامبراطورية البريطانية خارجة ظافرة من حرب بذلت فى سبيلها مهجاً وأموالا ، واكتسبت من جرائها عطف العالم عليها وإعجابه بها ، وبذلك لا أستغرب أن أراها تمد يدها تنتزع قطراً من هنا وتحتل مقاطعة هناك ، وتتطلع إلى ما هنالك ، وهى تتذرع بروح الديمقراطية وإسعاد البشرية وتهذيب الشعوب وإنقاذها من الخوف والمرض والجوع ، إنما الذى يدهشنى حقاً هو أن أرى دولة فرنسا فى حال من الهوان والبؤس والذل ، والفقر والضعف والجوع ، ومن الضعة الروحية والفاقة المعنوية ، يدهشنى أن أراها تشمر عن سواعد مخرة بالية تحمل سلاحاً فتاكا ترمى به العزل من أبناء تونس والجزائر ومراكش ، قطعانها التى تعيش على صوفهم وتشبع من لحومهم كأنها تنتقم من الألمان وقد داسوا كبرياءها بحوافر خيولهم .

* * *

حفزنى إلى هذا التساؤل والاستطراد محاضرة سمعتها من الأستاذ محمود عزمى ألقاها فى نادى الرابطة العربية عن مشاهداته فى شمال أفريقيا فبدا لى أن أقارن بين الحكومتين الانجليزية والفرنسية فى طريقة استعمارهما الشعوب الشرقية المستضعفة الواقعة تحت حكمهما ، مكتفياً بهما وحدهما ، لأن الحكومات الأوروبية المستعمرة الأخرى وإن كانت أكثر ظلماً ، وأوفر شراهة وجشعاً ، تهتدى دائماً بهدى الانجليز والفرنسيين فى استذلال الأمم واستعبادها ، وتحذو حذوهما فى كل ما يقترفان من شرور ومظالم وما يدبران لها من أغشية للتضليل والتمويه .

نعرف أن السياسة الانجليزية رأت أن تقف سداً دون انتشار التعليم فى مصر فرمت وزارة المعارف بطاغية يدعى دنلوب عمل جاهداً على أن يجعل من النشء الجدد موظفين لدوائر الحكومة محدودى المعرفة مسلوبى الإرادة .

وما كنا نعرف قبل أن عرّفنا الأستاذ عزمى أن الفرنسيين فى تونس والجزائر ومراكش لا يسمحون بإنشاء مدرسة ابتدائية أو ثانوية إلا بإذن خاص من المقيم الفرنسى العام ، وما أندر ما يأذن ذلك الحاكم الأجنبى بافتتاح مثل تلك المدارس بحجة

أن التعليم يجب أن يبقى قاصراً فى الكتاتيب على حفظ القرآن ، وأن ما نسمع عن المدارس العالية هناك فأمرها بيد الفرنسيين وحدهم وأن برامجها موضوعة وفق مشيئة الروح الاستعمارى وهو ولا شك أضل وأسوأ من مشيئة دنلوب .

نعرف أن الشعوب الشرقية التى يحتل الانجليزى بلادها يحكمهم وفق قوانين موضوعة ومحاكم قائمة وأحكام تنشر وتذاع، بيد أن أقطار شمال أفريقيا تحكم ، كما روى الأستاذ عزى ، بغير قوانين ، وأن ليس فى « رباط » قانون عقوبات ، إنما لها محاكم شرعية تحكم فى الأحوال الشخصية وتفصل فى الملكيات الوراثية ، ولها محاكم أخرى تسمى محاكم الباشا عليها مراقبون فرنسيون من رجال الإدارة يرشدون الحاكم الدنى إلى الحكم على المتهم .

نعرف أن الإنجليز فى مصر من حاكمين ومقيمين أقل الناس استملاكا واستثماراً للأراضى الزراعية ، بيد أن الحال يختلف مع الفرنسيين من حاكمين ومقيمين فى شمال أفريقيا فى امتلاك الأرض ، وقد سمعنا من الأستاذ المحاضر أن المستعمر الفرنسى يملك الأرض ويستأجر الأهالى لاستغلالها بأبخس أجر ويقرضهم مالا لا يقوون على سداده ، وبذلك المال المقرض يبقى الفرنسى المالك قابضاً على عنق المغربى الأجير طول حياته .

نعرف أن المندوب السامى الانجليزى فى مصر حاكم يربض وراء الستار يعمل متوارياً ما يصون مصالح حكومته ومنافعها ، وما عرفت مصر مندوباً سامياً يحمل عصا الديكتاتورية المقنعة سوى كرومر وكتشنر واللنبى ، وقل بن عرفت صنهم من عاش فى ظل الأحكام العرفية فى أيام السلم . بيد أن الحال فى بلاد المغرب تستوى فى السلم وفى الحرب ، فان الأحكام العرفية هناك معلنة منذ عام ١٩١٢ وحجة الفرنسيين فى إعلانها كما قال الأستاذ عزى أنها تمنح القيم العام حرية مطلقة فى الحكم والتصرف الإدارى ولولاها لوجب عليه أن يراجع باريس فى كل كبيرة وصغيرة من شؤون السياسة والإدارة والقضاء .

نعرف أن الانجليز فى مصر منعوا الخديو عباس من العودة إلى بلاده وأنهم خلعوه من ولايته الشرعية ، وأنهم هيأوا أحد راجات الهند لاعتلاء العرش المصرى ، وأن السلطان حسين أنقذ البيت المالك بقبوله ولاية السلطنة إبان الحرب العالمية الأولى ، وإننا نعرف جيداً أن حادث شهر فبراير المشؤوم ثابت فى ذهن كل مصرى ، ونعرف فوق ذلك أن الحكومات المصرية التى تولت الحكم إبان الحرب الأخيرة أبت على الحكومة الانجليزية الاشتراك رسمياً معها فى الحرب مستمسكة بمعاهدة ١٩٣٦ التى تنص على حرية الحياد ، وعرفنا أن الحكم الفرنسى يستوى والحكم الانجليزى فى معاملة الحاكمين ، حدثنا الأستاذ المحاضر عن « المنصف » باى تونس قال : التزم هذا العاهل المخلص لوطنه شروط الحياد التام لبلاده ، وقد أبى على الألمان ما أباه على الأمريكان والانجليز ، وقد وقف كذلك فى وجه الفرنسيين يصدهم عن تجنيد أبناء رعيته ، وقال : كان الجنرال جيرو يداً من أيادى المرشال بتان وذنباً من أذناب حكومة فيشى ، وأن هذا القائد عند ما جاء تونس لينضم إلى الجنرال ديجول أو يعمل معه ، كان أول ما عمله ترحيل المنصف الباى إلى فرنسا وأنه احتجزه فى الصحراء ستة شهور حتى اضطره إلى كتابة صك تنازله عن العرش، وعندها حملته طيارة إنجليزية إلى باريس تحرسها شرذمة من الجند البريطانى ، فى حين أن الضباط الفرنسيين والطيارين الفرنسيين رفضوا نقل هذا العاهل المحبوب من شعبه ومن كل من عرفه أو اقترب من بلاطه .

يعرف كل من عاصر الثورة المصرية عام ١٩١٩ أن أحداث السنوات الخمس التى تلتها كانت أحداثاً جساماً ، وأن الانجليز لم يجابهوا الثورة مجابهة إلا عند ما كانوا يدعون دفع الأخطار عن مصلحتهم أو يتذرعون بحماية أرواح الأجانب وممتلكاتهم ، وعندها كانوا يعتشقون السلاح يعملون به مايتوهمون أنه يقضى على روح الثورة المتأججة . فكم من دماء أهدرت ، وشباب ذوى ، وأمهات ثكلت ، وزوجات ترملت ، وأرواح صعدت إلى باريها تشهد على ظلم الظالمين ! وكم من صفحات أضيفت إلى تاريخ الاستعمار البريطانى سطرها اللورد اللنبى بسيفه وقد حاول المرشال ويفل تبريرها وتعزيزها بقلمه ، وما تلك الصفحات سوى شهادة صادقة على خنق حرية الشعوب الفتية بأيدى دعاة أنصار الحرية .

أما موقعة الجزائر الأخيرة فقد رواها الأستاذ محمود عزى ، وعززها الأستاذ أمين الجامعة العربية . قال الأول : فعلت دعاية الحلفاء فعلها فى نفوس المتربيين وتأثروا كما تأثر سواهم بميثاق

الأطلنطي . وسحرتهم الديمقراطية الفاتنة واجتذبتهم الحرية ، فما إن ألقى الغربيون المتحاربون سلاحهم حتى هب الشعب الجزائري هبة واحدة يظهر شعور الفرح والغبطة بدنو الحرية ، فمشى في الشوارع أفواجاً منظمة يحمل أبناؤه الأعلام واللافتات فيها دعاء للحرية ومطالبة بالاستقلال .

هال المستعمر سماع صوت الشعب وحرارة ندائه فأمر القيم العام البوليس بتفريق المتظاهرين وتمزيق أعلامهم ولافتاتهم ، فنفذ البوليس الأمر بغلظة وقسوة . هاج الشعب وغضب لهذه المقابلة الظالمة فعاد ثانية إلى التجمع والمناداة بغضب للحرية والاستقلال ، فقابلهم البوليس ثانية برصاص البنادق ، ففر الشعب إلى الضواحي يصب غضبه على بيوت الفرنسيين .

قامت قيامة القيم العام فأمر الجيش بإخماد الثورة .. مشى الجيش بجانبه أصحاب الأراضي من الفرنسويين وقد نضوا ثيابهم المدنية وأخذوا يعملون سلاحهم معه في رقاب الأهلين ونيرانهم في أكواخهم ، وما زالوا بهم تقتيلا وتحريقاً حتى طرحوا بقاياهم في الصحراء وقد انجلت الواقعة عن ثلاثين ألفاً من القتلى .

وقد عزز هذه الحكاية سعادة الأستاذ أمين الجامعة العربية بقوله : لما كنت في باريس حادثت أولي الأمر هناك بهذه الواقعة المحزنة فلم أسمع منهم إنكاراً لها ، ولكنهم قالوا إن فيها مبالغة ، والحقيقة التي اعترفوا بها هي أن عدد القتلى لم يتجاوز الثمانية عشر ألفاً !

وددت لو اتسع المجال لعرض كل ما سمعت من الأستاذ المحاضر ومقارنة أعمال المستعمرين بعضها ببعض ، ولكن ما إلى هذا رميت ، ولا إلى التشهير قصدت ، إنما مرماي هو كشف النقاب عن الظلم الكامن في نفوس الغربيين المستعمرين ، ثم ما هو الواجب علينا حيالهم .

أنا لست مؤمناً بالإنسان ولا بعلومه ، ولا بعقله ، وقد كشف الكثير من أسرار الطبيعة ، وأنكر كل الإنكار المدنية والحضارة والتهذيب والكياسة وكل الأخلاق الفاضلة في الشعوب الأوروبية التي لم تقو على محو روح الشر المتأصل فيها ولا اقتلاع جذور الظلم الكامن في جوانبها ، ولا هبوط حمى الجشع المستعر في ضلوعها ، إنما أومن عن عقيدة بأن الشر يدفع الشر وأن الظلم لا يقتله إلا الظلم .

حبيب الزحلاوي

خواطر مسجوعة :

فلسفة الأمل . . .

سأل سائل : ما الأمل ؟ قلت : مصحح العلل ، ومبدد الملل ، ومتقن العمل . مذلل الصعاب ، ومهون العذاب . مُعبِّد التراب ، ومكوثر السراب . مُصغِّر ما جل ، ومكثِّر ما قل ، ومُغْنِي القل ، بعسى ولعل ! الأمل ساحر مُزوِّق ، بالأوهام يسرق ، وكاذب ملفِّق ، فلما يصدق ! الأمل سالب الأحلام ، وناهب الأيام ، وغالب الآلام ، ومصاحب المولود حتى الحمام ! ما أحب الأمل إلى القلب ، وإن استحق الثلب ! قوعده عذب ، وكذبه خطب . خياله فتنة ، وحقيقته محنة . بدايته جنة ، ونهايته جنة ! الأمل يصور المستقبل أجمل تصوير ، وما تصويره إلا تزوير ؛ ويُقدِّر المحبوه أحسن تقدير ، وما تقديره إلا تغرير ! الأمل كالأفق الممتد ، يظهر على بعد ، وكأنه بعد خطوات تُعدّ ، يكون في متناول اليد ! يُجسم لنا الوهم ، فنخطئ الفهم ، ونتسرع في الحكم ، على المغيَّبات الصم البكم ! رونقه جذاب ، ومنطقه خلاب . خمرته أشهى من ابنة الأعناب ، ونشوته عزم متوقد وثاب ؛ فإذا حسرت الحقيقة عن وجهها نقاباً ، وكشفت الغيبة عن سرها حجاباً ، تبدلت خمرة الأمل صاباً ، ونشوته أوصاباً ! فهو الهم المرغوب ، والمرض المحبوب ، والصديق الكذوب ، والجاد اللعوب ! يُثقِل ولا يُقيل ، ويُطمِع ولا يُنيل ، ومن عجب أنه يخيل ، وكل الناس له خليل ! بيد أن له في الحياة شأناً يُؤثر ، وأثراً يُذكر ؛ فإذا قلنا : إن الحي بدونه كمن يقبر ، فهو بلا شك البعث الأصغر ! يخلق من البعوضة جملا ، ومن الذرة جبلا ، ومن الضيق سبلا ، ومن الظلمة بدراً مكتملا ؛ ومن الضعف قوة ، ومن الشيخوخة فتوة ، ومن مرارة العيش لذة سائغة حلوة ، ومن الشقاوة سعادة مرئية مرجوة !

فلولا الأمل ما ثار مثابر ، ولا خاطر مخاطر ، وما تسابق قاصر وماهر ، ولا تنافس عاجز وقادر . ولولاه ما حلا زاد ، ولا طاب رقاد ، ولا تسلّى فؤاد ، بميعاد بعده ميعاد !

هاشم يرد